المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد التاسع عشر، يونيو ٢٠١٨ م

الدراسة التاريخية للإعراب عند المستشرقين: عرض ونقد

محمد نور عالم *

Abstract

Orientalists have different research work in Arabic languages, literature, culture, religion and its history. But in that area, they adopted a special approach to discuss and evaluate, which differs from the Arab researcher's method. The (إعـراب) is the widest and most important chapter in Arabic grammar and the only living characteristic of the Sematic Language division still in the Arabic language. I tried to discuss briefly in this article how they deeply considered this matter. For doing this I depend on some research papers of the Orientalists. And those are translated by Doctor Hamza ibn Kobolan Al-Mozainy and published in a book called (دراسات في تاريخ اللغة العربية)

الكلمات المفتاحية: مفهوم الإعراب وتاريخه، الدراسة التاريخية للإعراب عند المستشرقين

المقدمة

اعتمدت في كتابة هذا المقال على مجموعة من أبحاث المستشرقين [١]، التي ترجمها الدكتور حمزة بن قبلان المزيني، وجمعها في كتابه (دراسات في تاريخ اللغة العربية)، ونشره دار الفيصل الثقافية، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.؛ وتتكون من الأبحاث الآتية: (العربية) لحاييم رابين، و(العربية الوسيطة) ليوهان فوك، و(نشأة الازدواجية العربية:دراسة في أصول اللهجات العربية) لجاشوا بلاو، و(العربية) من كتاب مايكل

* أستاذ مساعد، قسم العربية، جامعة داكا

زويتلر بعنوان: (التقليد الشفهي للشعر العربي القديم)؛ و(طبيعة اللغة العربية القديمة وتغيّرها إلى العربية الوسيطة ومن ثم إلى العربية المعاصرة) لأندرو فريمان.

عالج المستشرقون في هذه الأبحاث المذكورة تاريخ اللغة العربية وتطورها على مناهجهم الخاصة حيث تشمل دراساتهم قضايا مختلفة في الموضوع الواحد، ومن ضمنها تاريخ نشأة اللغة العربية وعلاقاتها ومنزلتها بين أسرة اللغات السامية ونقوشها وخطوطها وخصائصها وكيفية تدوينها. وبما أن القرآن الكريم والشعر الجاهلي هما أقدم النصوص الكاملة التي احتفظت بها العربية، لذلك تمحور دراسة الإعراب عند المستشرقين على النصوص القرآنية والأشعار الجاهلية مثل العلماء العرب؛ إذ تناول المستشرقون قضية الإعراب في دراساتهم المذكورة وناقشوها نقاشًا مستفيضًا، حيث انتبهوا إلى أهمية الإعراب في العربية، والأثر الذي تركه اختفاءه. وأتت قضية اختفاء الإعراب في نقاشهم كأنها الفارق بين العربية الفصحى والعامية، وبعبارة أخرى كأن الإعراب هو المعيار الذي يحدّد بداية التغير الذي مرت به العربية. وفي هذا المقال أود أن أشير إلى بعض تلك الدراسات باختصار مبينا كيفية معالجتهم الإعراب من الجانب التاريخي والنتائج التي توصلوا إليها.

مفهوم الإعراب وتاريخه باختصار

يرد لفظ الإعراب في اللغة العربية لمعان كثيرة، أشهرها ستة: البيان والإجادة والحسن والتغيير وإزالة الفساد عن الشيء والتكلم باللغة العربية. وفي اصطلاح النحاة: هو تغيير أواخر الكلم بسبب اختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا أو تقديرا[٢]. وقسّم العلماء العرب الإعراب إلى أربعة أقسام، وهي: رفع، ونصب، وجر، وجزم، فالرفع والنصب يشترك فيها الاسم والفعل المضارع، والجر يختص بـ(الأسماء)، والجزم بـ(الأفعال المضارعة [٣].

إن الإعراب يعدّ في العربية عنصرًا أساسيًا من عناصر الفصحى، وخاصية سامية قديمة تشترك فيه العربية الأكاديةَ البابلية القديمة.يستخدم فيهما الإعراب منذ أكثر من ٢٥٠٠

سنة قبل الميلاد، كما ذهب إليه أكثر اللغويين العرب والمستشرقون.وقد ساق رمضان عبد التواب نصوصًا من قانون حمورابي المدوّن باللغة البابلية القديمة، وبيّن فيها تماثلَ الإعراب بينها وبين العربية. فالإعراب فيها كما هو في العربية الفصحى تمامًا، فالفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، وعلامة الرفع الضمة، وعلامة النصب الفتحة، وعلامة الجر الكسرة تماما كما في العربية [٤] . وقد حملت لغة النقوش العربية البائدة بذور الإعراب، وإن كان آثاره ضئيلة، إذا قيست بالإعراب في العربية الحديثة؛ وقد رمز إلى الإعراب في تلك النقوش بحروف تلحق بآخر الكلمة، ومن ذلك ما جاء في نقش النمّارة: وتزدو– فالواو علامة الرفع عندهم، وملك معدو– فالواو في الاسم ذكرت للإعراب.كما حملت الإعرابَ لهجة (أزد السراة)، وهي لهجة عربية قديمة حيث يقولون: جاء زيدو، ورأيت زيدا، ومررت بزيدي، فالواو والياء يمكن أن تكون دليل الإعراب في تلك اللهجة[٥].

وعلى مرّ العصور ينطق الإعراب في كلام العرب ويكتب في كتاباتهم، وأحيانا ينطق ولا يكتب؛كما نراه مختفيا عند ظهور الإسلام في كتاباتهم– ولكن كان جاريا في تخاطبهم العادي في مستوى البدو والحضر على السواء حتى أواخر القرن الثالث الهجري؛ ومحفوظا في مستوى الفصيح حتى اليوم– ثم أعاده علماء العربية في الكتابة مرة ثانية لأجل وقوع الناس في الخطأ الإعرابي في تلاوة القرآن. فكان أبو الأسود الدؤلي أول من كتب علامة الإعراب عن طريق إعراب القرآن بالنقط. وكذلك كان أول من أشار إلى قضية دلالة الحركات على المعاني الإعرابية [٦]. فحركات الإعراب لها أهمية في تنويع أصل كل معنى وعن طريقها يتحقق تغاير المعنى الصرفي، وكان لها مكان مرموق في موازين الشعر أيضا [٧].

وهناك نقاش مستفيض بين النحاة القدامى والمحدثين في أصل الإعراب من الحروف والحركات. فنختصر هنا بذكر بعض الأقوال المهمة؛ إذ يرى الكوفيون أن الإعراب يكون حركة وحرفا، وأن البصريين رجحوا بأنه الحركة وما عدا الحركة محمول عليها [٨].

ويرى ابن جني "أن الحركات أبعاض حروف المد واللين؛ وهي الألف والواو والياء، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث: الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو. وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغير والكسرة الياء الصغير والضمة الواو الصغير" [٩]. وقال ابن يعيش: "إن أصل الإعراب أن يكون بالحركات، والإعراب بالحروف فرع عليها" [١٠]. ويقول الرضي: "إن الحركات في الحقيقة أبعاض حروف العلة...فالرفع ثلاثة أشياء: الضم والألف والواو في نحو جاء مسلم ومسلمان ومسلمون وأبوك، والنصب أربعة: الفتح والكسر والألف والياء نحو أن مسلما ومسلمات وأباك ومسلمين، والجر ثلاثة أشياء: الكسر والفتح والياء نحو بزيد وبأحمد وبمسلمَين وبمسلمِين وبأبيك"، ثم يقول : "وكل ما سوى الضم في الرفع والفتح في النصب والكسر في الجر فروعها" [١١]. قال الدكتور أحمد علم الدين الجنيدي(١٩٢٤–...): إنه لا فرق بين الحركات وحروف المد إلا في الكمية من وجهة نظر الدرس اللغوي الحديث، وعلماء العربية الأقدمون يذهبون إلى مثل ذلك أيضا، حيث لأنه ليس بين الإعراب بالحركات والحروف من فرق إلا في الكم. أما في الكيف فهي: الحركات أصوات مد قصيرة والأحرف أصوات مد طويلة...[١٢].

وأما الدراسات النحوية الحديثة لا تهتم بفكرة الأصل والفرع كما بيّنها النحاة الأقدمون. فنكتفي هنا بذكر قول الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف (١٩٤١–٢٠١٥)، وهو يقول: "أما نحن فنرى أن كل علامة من علامات الإعراب أصلية في نفسها، فالضمة علامة إعراب أصلية فيما يمكن أن توجد فيه، والواو علامة إعراب أصلية في الكلمات التي توجد فيها، وكذلك بقية العلامات. وأما الكلمات التي لا تقبل إحدى هذه العلامات فهي خالية من العلامات الإعرابية، وليس معنى خلوها من العلامة الإعرابية أنها خالية من الإعراب، إذ إنها لها حالة إعرابية تعرف عن طريق القرائن التي تكشف عن هذه الحالة الإعرابية من رتبة وصفية وغير ذلك، ففي مثل (أكرم عيسى موسى) لا توجد

علامة إعرابية في كل من عيسى وموسى، ولكن رتبة كل منهما تحدّد حالته الإعرابية ووظيفته في الجملة" [١٣].

دراسة الإعراب عند المستشرق مايكل زويتلر (Michael Zwettler)

إن عربية الشعر المشتركة [١٤] تعدّ من أهم القضايا في دراسة تاريخ اللغة العربية،وتناولها عدد كبير من المستشرقين في دراساتهم، ومنهم المستشرق مايكل زويتلر (١٩٤٠–٢٠١٠) الذي له دراسة طويلة في هذا الموضوع؛درسه في الفصل الثالث (The Classical Arabiyyah' من كتابه :The Oral Tradition Of Classical Arabic Poetry Its Character and: Implication). بيّن زويتلر في هذا الفصل سمات متعددة لعربية الشعر مع ذكر آراء اللغويين العرب والأوروبيين حيث عالج الإعراب من خلال هذه الدراسة. وكان غرض المؤلف من هذا الفصل معالجة إحدى أقدم المشكلات في مجال الدراسات العربية بنمط جديد، وهي أصل العربية التي استخدمت في الشعر وطبيعته [١٥].

خصائص عربية الشعر المشتركة :

يرى زويتلر أن *عربية الشعر المشتركة* كانت شكلا لغويا شعائريا إلى حد بعيد جدا. قارنها باللغة اليونانية التي صاغ بها هومر ملحمتي الإلياذة والأوديسة. وتتسم مثل هذه اللغة المشتركة بخصائص متعددة، منها المحافظة على الخصائص القديمة[١٦]. ثم إنه ذكر سمات متعددة لعربية الشعر، نكتفي هنا ببعضها لضيق المجال، وهي:

١–المحافظة على صيغ الوقف

يرى زويتلر أن المحافظة على صيغ الوقف بالحركات الطويلة بدلا من الحركات القصيرة في القافية – وهو ما يمثّل أقدم طور في اللغة – يعدّ من أبرز الخصائص القديمة *لعربية الشعر* في مقابل القرآن الكريم والكلام واللهجات المحكية [١٧]. وهناك فروق واضحة بين أشكال الوقف في الشعر، وأشكال الوقف في القرآن والنثر، حيث يقع الفرق الرئيس بشكل عام في أداء الشعر، بالوقف على الحركات الطويلة؛ أما

النثر فيتميّز بالوقف على الأصوات الصامتة أو الوقف بالإسكان، مثل نطق كلمة (القدر) بإقحام حركة قبل الراء [١٨]. إنّ هاتين الظاهرتين من ظواهر الوقف تدلان على أن هناك طورين تاريخيين مختلفين للغة العربية. فتمثّل لغة الشعر من حيث الاستعمال الغالب (أي بالوقف على الحركات الطويلة) طورا لغويا لم تختف فيه حركات الإعراب القصيرة في الوقف، أي أنها كانت موجودة بشكل يشبه ما نجده في درج الكلام. لكن اللغة اليومية لم تكن تنطق بهذه الكيفية في ذلك الطور بالطبع [١٩]. وكذلك يرى أن الانحلال في نظام الإعراب واختفاء الحركات الإعرابية في درج الكلام قد حدثت لأجل ظهور صيغ الوقف في العربية، هذه الحالة كانت شائعة في أغلب اللهجات المحكية، حتى ظهرت في الشعر أحيانا .[٢٠]

٢–استعمال الإعراب

وكذلك يعدّ زويتلر "استعمال الإعراب" أهم سمة لعربية الشعر وأقدمها وأكثرها تمييزا لها. وأن وجود الإعراب في العربية الفصحى لا يمكن أن يكون نتيجة لنمذجة نظرية متأخرة فرضها اللغويون المسلمون، وأنه لابد أن حركات الإعراب كانت ترمز من غير شك باللغة الحية بالصورة التي لابد أنها كانت مستعملة بها في طورا ما [٢١]. ومن أهم القضايا التي ناقشها زويتلر في هذه المسألة هي: هل الإعراب ظاهرة فريدة في عربية الشعر أم أنه كان موجودًا في اللهجات المحكية ولغة القرآن الكريم كذلك؟ ناقشها باستقدام آراء اللغويين المسلمين والأوروبيين [٢٢]. ولكن نفضّل هنا تبيين آراء (زويتلر) لكي نعلم موقفه من هذه المسألة. ولأن آراء اللغويين المسلمين والأوروبيين سنتناولها كلا على حدة في الصفحات التالية الأخرى.

موقف زويتلر من مسألة الإعراب

إن القرآن كان يتلى في أول الأمر بلهجة مكة، فيها ظاهرة الإعراب، ولكن هذه اللهجة تتصف بالعامية. وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم استعمل نظام الإعراب كاملا في كتابة القرآن، غير أن كلامه وكلام أصحابه اليومي لم يكن معربا [٢٣]. وكذلك علامات الإعراب لم تكن موجودة في اللغة العربية المحكية في القرن السابع الميلادي، بل كانت ظاهرة فريدة في عربية الشعر فقط. وعربية الشعر هي إما لغة أدبية شعائرية مصطنعة، وإما لغة خاصة بالطبقة العليا، طوّرها الأشراف الحضر الحجازيون وتكلموها [٢٤]. فظهر هناك اختلاف كبير بين العربية واللهجات البدوية،من ناحية، أو بين *العربية* واللغة المحكية في مكة والمدينة، من ناحية أخرى [٢٥].

ولم يكن الشعر في تلك الفترة مماثلا للغة التي يتكلمها البدو بصورة طبيعية بوصفها لغة أولى لهم. وإن بقايا التنوين في اللهجات البدوية المعاصرة لاتمثل دليلا مقنعا على أن" العربية" كانت تستخدم في الكلام اليومي معربة إعرابا كاملا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم [٢٦]. استدل (زويتلر) على عدم التماثل بين لغة القرآن واللغة المحكية بتقديم حالات عدم الاطراد الهجائي الكثيرة في كتابة النص القرآني، وذلك مثل عدم وجود طريقة واحدة في كتابة الهمزة، وكتابة الفتحة الطويلة بشكل غير مطرد في وسط الكلمة على صورة (ألف) وكتابة الكسرة الطويلة (الياء) في نهايتها، حيث إنها توحي إلى أحد الاحتمالين التاليين أو كليهما، أما الأول فهو يفترض أنه لم يكن هناك تقاليد متفق عليها للكتابة على نطاق واسع, وأما الثاني فهو يقول: إن اللغة التي أوحي بها القرآن كانت، تتميز تميّزا بينا عن اللغة المحكية [٢٧].

وكذلك يرى أن الإعراب لم يكن في أوج ازدهاره في اللهجات البدوية بدليل أن الإعراب كان مفقودا في اللهجات البدوية عند ظهور الإسلام وقبله. ولم يكن يسمع باطراد في الكلام اليوم في أي مكان، سواء أكان عند سكان المدن أم عند البدو [٢٨]. كما زعم أن اللغويين

خرجوا إلى البادية لأجل *العربية* وحصلوا منها *العربية* فقط. فقد كان اهتمامهم مقصورا على أنواع الكلام الخاص البليغ يعني الشعر والخطابة وغيرهما [٢٩]. وكذلك أنه رفض الأولية اللغوية للبدو، بدليل عدم انعقاد الإجماع بين اللغويين العرب الأقدمين عليها، وعدم النظر إلى استعمالاتهم على أنها صحيحة بطبيعتها، حيث ظن أن ما قال اللغويون العرب في هذا الشأن فهو فرضيات وتخمينات،ليست أدلة قوية معتمدة. ثم استدل على رأيه بالخطأ العروضي الذي ظهر عند البدو المسمى بـ"الإقواء" [٣٠] الذي حدث نتيجة لعدم القدرة على التعامل مع اللغة الشعرية. فعدّه زويتلر أوثق الشهادات، لأن اللغويين العرب عدّوه نوعا من اللحن؛ حيث قال زويتلر افتراضا عليه: إن الإعراب لم يكن في أوج ازدهاره في كلام البدو حتى أواخر القرن الرابع الهجري، غير أنه اقترح أخيرا لتناول جوانب مختلفة عن حياة البدو بوصفهم خبراء ولغويين ورواة الشعر الذين عاشوا بين أواخر القرن الثاني والرابع الهجريين للكشف على اختلاف حقيقي بين الفن اللفظي الذي أنتجه أولئك الشعراء الأوائل البدو وبين الشعر الذي كان يقوله الحضر المعاصرون لهم [٣١].

المآخذ على قول زويتلر: نرى اضطرابا في آراء زويتلر لأجل إقامة حجته على *عربية الشعر* بأنها لغة شعائرية مثل اللغة اليونانية. وأتى بجميع الأدلة في هذه المسألة وفق هذه النظرية. فلذا أقرّ —من جهة– وجود الإعراب في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ومن جهة أخرى رفض وجود الإعراب في جميع اللهجات البدوية و في الكلام اليوم من الحضر والبدو. وكذلك لا نقبل كلامه عندما قدّم دليلا بـ"الإقواء" على عدم أوج ازدهار الإعراب في كلام البدو. لأن البدو لا يتصفون بهذا الإقواء عامة،بل كان أكثر شيوعا بين الشعراء المغمورين، وكما أن الإقواء أتى من قلة فهم الذين رووه. وفضلا عن ذلك أن أبا العلاء المعري يرى أن الإقواء لم يكن منكرًا عند أهل الجاهلية، وإنما عيب عليه في الإسلام [٣٢].

دراسة الإعراب عند حاييم رابين (Chaim Menachem Rabin)

تناول حاييم رابين (١٩١٥–١٩٩٦) الإعراب في أثناء دراسة *عربية الشعر المشتركة* في بحثه: (العربية)، حيث اقترح بأن عربية الشعر المشتركة في الجاهلية كانت تتصف بلغة يلزم تعلمّها، وأن الرواة كانوا مصدرا لتعلمّها. وأنه كان هناك انفصال واضح في زمن البعثة بين عربية الشعر المشتركة واللهجات القبلية. فلم تكن عربية الشعر المشتركة لغة متكلمة على الإطلاق، لكنها تطورت لغة للشعر في أسواق العرب. وكان يوجد إلى جانب عربية الشعر المشتركة لهجات قبلية مختلفة. وكان المكيون يستخدمون عربية الشعر المشتركة لغة للتجارة، وهي اللغة التي أصبحت لغة أدبية [٣٣]. وأيضا يرى أن أصول لغة الشعر لم ترجع إلى لهجة قريش ولا إلى لغة قبيلة معينة، بل إنها كانت في أواخر القرن السادس الميلادي لهجة أدبية خالصة تشترك بين القبائل جميعها. ويشارك إليه المصطلح *عربية الشعر المشتركة*. وإن لغة القرآن تقف مكانا وسطا بين لغة الشعر المشتركة النموذجية واللهجة الحجازية .[٣٤]

المآخذ على رابين: إن *عربية الشعر المشتركة* في الجاهلية تتصف بلغة يلزم تعلمّها، هذا قول غير مقبول؛لأن التاريخ اللغوي يؤكد على قِدم اللغة العربية، وطبيعتها التي كانت خالية من التصنع والتعلم،بل يتكلم أبناؤها بلغتهم السليقة التي طبعوا عليها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، وكما يثبت التاريخ أن اللغة العربية أشد قرابة للغة السامية الأم حيث إنها حفظت خصائص– مثل ظاهرة الإعراب– لم تحفظها أية لغة من أخواتها، وذلك يمكن لها لانعزالها في الصحراء وعدم اختلاطها أو اختلاطها القليل مع الشعوب المجاورة الأخرى ،فكيف نقول إذاً بأن عربية الشعر المشتركة في الجاهلية كانت تتصف بلغة يلزم تعلمّها![٣٥]. وكذلك لم يقدم رابين دليلا مرضيا على أن لغة القرآن الكريم تقف مكانا وسطا بين لغة الشعر الجاهلي واللهجة الحجازية. بل القرآن الكريم كلام رب

العالمين، لغته عربية فصيحة مبينة، فلا فرق بين لغة القرآن والشعر الجاهلي ولغة قبائل العرب.

دراسة الإعراب عند فيرنر ديم (Werner Diem)

درس فيرنر ديم [٣٦] الإعراب من خلال دراسة اللغة العربية ولهجاتها المختلفة وعلاقاتها باللغات المجاورة لها، خاصة باللهجة النبطية العربية، وبحسب رأي زويتلر أن ديم أول شخص قدّم دليلا جوهريا على التأريخ المحدد لانحلال نظام الإعراب ثلاثي الحركات في إحدى اللهجات العربية [٣٧]. عرّفنا ديم من خلال دراسته بأن أهم خصيصة تميّز العربية عن اللهجات العربية المعاصرة إنما هي احتفاظها بالنظام الإعرابي السامي. فلذا اهتم بمسألة تخلي العربية عن نظام الإعراب.

يتناول (ديم) في هذه الدراسة عددا كبيرا من أسماء الأعلام التي وجدت في النقوش النبطية الآرامية. فقد ظهر كثير من العناصر العربية في هذه النقوش مثل أداة التعريف العربية (أل)، والكلمة العربية (ابن/بن) وغير ذلك [٣٨].

هناك تفسيرات مختلفة لوجود الحروف في آخر الكلمات النبطية التي تدل على الحركات في نهاية الكلمة.ولكننا ننظر هنا إلى تفسير (ديم) فقط. قسّم (ديم) هذه الأسماء الأعلام إلى أسماء بسيطة(أي عمرو وجشم وغير ذلك)، وإلى أسماء مركبة (عبد الله وأبو نواس غير ذلك). وقد توصل (ديم) فيما يخص الأشكال البسيطة إلى أن أكثر من خمسة وتسعين بالمائة منها كانت تنتهي بالواو التي تدل على الضمة. وأما فيما يخص أسماء الأعلام المركبة، فقد وصل (ديم) إلى نتيجتين: تخص إحداهما الأسماء المعبدة دينيا (أمة الله ووهب الله وشمس البعل وغير ذلك)؛ وتخص الثانية الأسماء التي تبدأ بـ(أبو، وابن وغير ذلك)؛ أما الأسماء المعبدة دينيا فقد كتبت منتهية بالياء التي تدل على الكسرة في أغلب الأمثلة [٣٩].

على كل حال، فإن(ديم) يرى أنه يمكن أن يستنتج من هذه الظروف نتيجة واحدة فقط، وهي: أن تلك الأسماء المذكورة التي تنتهي بـ(ي) و(و) ، يجب أن تكون قد نشأت في وقت كانت فيه اللغة العربية النبطية ما تزال تستعمل نظام الإعراب [٤٠].

عرفنا من دراسة (ديم) السابقة بأنه عدّ الحروف التي تلت في آخر الكلمات النبطية علامات الإعراب، والشيء الثاني، أن إقرار وجود الإعراب في العربية النبطية يدل على إقرار وجود الإعراب في العربية عامة، حيث ظن : إذا لم تحتفظ عربية الأنباط بنظام الإعراب في تلك الفترة المبكرة، فإن من الصعب أن نتخيل أن اللهجات المجاورة لها في وسط الجزيرة العربية كانت لا تزال تحتفظ بالنظام الإعرابي الكامل حتى القرن السابع الميلادي، أي بعد اختفائه من عربية الأنباط بثمانية قرون.بل إنه حتى إن افترضنا أن لهجات الأطراف لعربية الأنباط كانت أول من تخلى عن نظام الإعراب ، فإن هذا التطور يجب أن يكون قد تغلغل حتى عمّ اللهجات العربية كلها قبل القرن السابع الميلادي بزمن طويل. وكانت لغة الشعر العربي المبكر وحدها هي النوع الوحيد الذي ظل محافظا على الظروف القديمة خلال هذا الزمن الطويل [٤١].

دراسة الإعراب عند كورينتي (F. Corriente)

درس كورينتي (١٩٤٠–٢٠١٠) الإعراب في مقال بعنوان : (On the Functional Yield of Some Synthetic Devices in Arabic and Semitic Morphology) حيث توصل إلى نتيجة، وهي أن علامات الإعراب كانت تستعمل بشكل واضح في الشعر العربي القديم والقرآن الكريم والكلام اليومي عند كثير من البدو وكلام بعض سكان الحواضر [٤٢] . وبشكل مماثل إنها لا تستعمل الآن ومنذ قرون عديدة في العربية الوسيطة وأشكال العربية المحكية كلها. كانت اللهجات البدوية لا تزال معربة حوالي مائتي سنة التي تلت انتشار الفتوحات الإسلامية. وأن العربية القديمة لم تكن موجودة على الصورة التي كانت عليها *العربية* التي قعّدها النحويون خلال الفترة المبكرة من العصر العباسي.

بل إنه يفترض أن نوعي العربية، المعرب [٤٣]، وغير المعرب كانا متزامنين في إطار بنيوي واحد تغلب عليه سمة التحليلية، قبل ظهور الإسلام، حيث لم يكن الإعراب مهمّا جدا إلا لمكانته البلاغية وقيمته الاجتماعية حتى ذكر في بحث آخر أن نظام الإعراب في العربية غير مهم [٤٤]. ويفهم من كلام كورينيتي أن علامات الإعراب هي نظام ميت، وحملها الوظيفي كان قريبا من الصفر، ذلك أنه يمكن تحديد المعنى الدقيق للقول المعين دون اللجوء إلى علامات الإعراب. وذلك من خلال الإشارة إلى بعض الخصائص التحليلية مثل ترتيب الكلمات، والكلمات الصرفية وغير ذلك. لهذا فإنه يجب أن تنزل الإعراب منزلة ثانوية [٤٥] . وتبعا لوجهة النظر هذه، فإنه ربما لا تكون هناك مشكلة في التفاهم المتبادل بين أولئك الذين كانوا يتكلمون شكلا معربا، وأولئك الذين كانوا يتكلمون شكلا غير معرب[٤٦]. وكما يرى أنه يمكن الظن بأن الحجاز والشام وجنوب العراق كانت المناطق التي بدأت تختفي من علامات الإعراب قبل الإسلام، وهذه العلامات ذات الحمل الوظيفي الضئيل أدت إلى نشوء اللهجات العربية[٤٧].

اعتراض جاشوا بلاو على قول كورينتي:

يعترض جاشوا بلاو في بحثيه (On the Problem of the Synthetic Character of Classical Arabic as against Judaeo-Arabic{Middle Arabic}) و (The Beginnings of the Arabic Diaglossia. A Study of the Origins of Neoarabic) على كورينتي في عدد من النقاط، ومن ذلك مثلا أن بلاو يشير إلى ترتيب الكلمات وحده الذي يحدّد المكونات في جملة ما، ليس تحليليا ولا تأليفيا، وكما ينتقد بلاو على قول كورينتي بأن علامات الإعراب تحمل حملا وظيفيا ضئيلا حيث يقول إن عملية الإعراب ليس ضئيلة بل ينشأ عنه جملة صحيحة نحويا، وإن كانت، من حيث المعنى، غير ملائمة للسياق، أو ينشأ عنه تراكيب مختلفة، لكنه يكاد يتماثل من حيث المعنى مع التركيب الأول. وأن علامات الإعراب لا تحذف في العربية النموذجية إلا عند الوقف فقط، أما في درج الكلام فإنه لا يمكن الاستغناء عنها، يضاف إلى ذلك أن الوقف

لا ينشأ عنه حذف علامات إعراب جمع المذكر السالم والمثنى.كذلك فإن ما يسمّيه كورينتي "عدم الأهمية" موجود في غير اللغة العربية النموذجية [٤٨]. وكما أن (زويتلر) خالف كورينتي في مسألة تزامن اللهجات المعربة واللهجات غير المعربة طوال فترة تمتد إلى القرن السابع أو السادس الميلادي [٤٩].

المآخذ على كورينتي:لم يكن المعرب وغير المعرب متزامنين في عربية الجاهلية، بل ساد فيها نوع واحد هو المعرب، ويعني هذا أن لغة العرب الجاهلية كانت معربة على جميع المستويات. وكذلك الإعراب له أهمية كبيرة في مستوى الصرف والجملة، فلا نستطيع تحديد المعنى الدقيق للقول المعين دون اللجوء إلى علامات الإعراب.

مسألة الإعراب عند يوهان فك (Johann Fuck)

بيّن يوهان فك (١٨٩٤–١٩٧٤) قضية الإعراب أولا من خلال دراسة اللهجات العربية المحلية للعربية الوسيطة في بحثه (العربية الوسيطة). أثبت في هذا المقال بأن الإعراب ما يزال باقيا قبل العربية الوسيطة حتى في تخاطب الناس. تناول في هذا المقال الأسباب التي أدت إلى اختفاء الإعراب عن اللهجات المحلية لهذه العربية. ومن أهم السمات لتلك العربية إضعاف الحركات القصيرة في نهاية الكلمات وحذفها، فلذا اختفى نظام الإعراب القديم [٥٠].

يقول يوهان فوك الإعراب ثانيا في اللهجات العامية في كتاب" العربية" الذي نشر عام ١٩٥٠م من الألمانيا [٥١]، ذكره زويتلر في الفصل الثالث من كتابه[٥٢] حيث انتقد هو ولغويون آخرون عليه في بعض المواضع حسب نظرياتهم. توصل فوك بعد دراسة لغة القرآن الكريم والشعر الجاهلي البدوي وشعر صدر الإسلام أن الإعراب كان لا يزال حيا في تلك الفترة، وكما يشير خروج النحويين حتى أواخر القرن الرابع الهجري إلى البادية لدراسة لغة البدو، بأن الإعراب كان في أوج ازدهاره في اللغة اليومية في تلك الوقت [٥٣]. وكما كشفت دراسته أن محمدا صلى الله عليه وسلم ومعاصريه لم يروا فارقا جوهريا بين اللغة التي

أنزل بها القرآن واللغة التي كانت يتكلمها القبائل البدوية .ولأجل ذلك فقد صيغ الشعر العربي القديم والقرآن الكريم باستعمال شكل لغوي واحد. وكان هذا الشكل اللغوي يتصف باستعمال علامات الإعراب، يضاف إلى ذلك أن هذا الشكل كان هو اللغة اليومية للبدو. أما اختفاء الإعراب فيعود سببه إلى دخول عدد كبير من غير العرب في وسط المتكلمين للعربية، وهم الذين كانت تخلو لغاتهم القديمة من الإعراب [٥٤]. أنا اعتقد أن ما قال فوك في قضية الإعراب أصح وأوسط وأقرب إلى أقوال اللغويين العرب.

انتقاد هانزفير (H. Fleisch) وأنطون شبيتالر (A. Spitaler) على قول يوهان فوك:

نرى أن هانزفير وشبيتالر اتفقا مع فوك في بعض الآراء، كما اختلفا في مسائل أخرى من القضية المذكورة؛ ومن المسائل التي اتفقا عليها هي:[٥٥] أنه كان لدى العرب من القرن السادس إلى أوائل القرن التاسع الميلادي لغة، كان الإعراب أكثر الخصائص المميزة بها. وأن القرآن الكريم كان يقرأ أيضا بالعربية المعربة نفسها.ومن المسائل التي اختلفا حولها [٥٦]: إن العربية كانت لغة يومية محلية بالتحديد. وأنه يمكن أن تنشأ عن انتشار البدو مع الفتح الإسلامي "لغة بدوية مشتركة" تستخدم في المدن التي نشأت عن معسكرات الفاتحين كالكوفة والبصرة.وأن غير العرب من المسلمين عملوا على تخلص العربية من الإعراب.

موقف هنري فليش (Henri Fleisch) وجاشوا بلاو في الدفاع عن "القول بأن الإعراب كان في أوج ازدهاره في حياة البدو اليومية:

اتفق فليش (١٩٠٤–١٩٨٥) وبلاو على قول يوهان فوك بأن الإعراب كان في أوج ازدهاره في اللهجات البدوية حتى القرن الرابع الهجري، حيث يقول فليش تأييدا على قوله: لقد كان هؤلاء البدو يتكلمون في زمن الفتوحات الإسلامية المبكرة نوعا من العربية تظهر فيه علامات الإعراب. وكان الشعراء قد احتفظوا بهذا الإعراب في التقليد الشعري. وكان الإعراب سمة لازمة في اللغة اليومية، ويمكن للطفل البدوي أن يكتسبه بصورة طبيعية

.وربما كانت بعض الجماعات قد فقدت الإعراب في تلك الفترة، لكن هذا لا يغيّر من الانطباع العام شيئا. وقد استشهد (فليش) على قوله الأخير برواية الأزهري، الذي زعم أنه لم يسمع حين كان أسيرا عند بدو القرامطة في شرق وسط الجزيرة العربية أيّ لحن أو خطأ فاحش في كلامهم [٥٧].

وأما بلاو فيرى أن اللهجات البدوية كانت تحتفظ ببنية كانت على وجه العموم تأليفية الطابع [٥٨]. وأن تقليد الشعر العربي القديم قد استمر بين البدو؛ لأن ظروف حياتهم – في مقابل حياة الحضر–لم يدخلها تغير يذكر، وقد ظلت كما كانت قبل الإسلام [٥٩]. كما يرى بلاو أن عدم وجود الخصائص الخاطئة في القرآن الكريم يبيّن أن العربية لم تكن تختلف من حيث البنية في الأقل، عن اللغة التي كانت تتكلم في مكة [٦٠]. ويدل كلامهما المذكور أيضا على أن السبب في اختفاء الإعراب والاتجاه نحو الطابع التحليلي العام، إنما يعود إلى اتصال العرب بمجموعات لغوية كانت لغاتها قد فقدت الإعراب منذ زمن بعيد.

دراسة الإعراب عند جاشوا بلاو (Joshua blau)

درس جاشوا بلاو (١٩١٩–...) قضية الإعراب في بحثه (The Beginning of the Arabic Diaglossia, A Study of the Origins of Neoarabic, Afroasiatic Linguistics.). حلّل فيه (بلاو) الازدواجية اللغوية [٦١] وبيّن بأنها لم تكن موجودة قبل الإسلام، وربما يمكن أن اللهجات العربية نشأت خارج نظام العربية قبل الإسلام. وفي الحقيقة أن الازدواجية نشأت نتيجة الفتوحات العربية الكبرى.

ظهر موقف بلاو عن الإعراب عند الدراسة المقارنة بين اللهجات الحضرية والبدوية من العربية الوسيطة، فنكتفي هنا بمثال من تلك الدراسة، وهو أن العربية القديمة مالت في المجال الصرفي التركيبي إلى النمط التأليفي، في حين اللهجات العربية مالت إلى النمط التحليلي. لذلك فقد اختفت علامات الإعراب في اللهجات العربية[٦٢] .

وقارن (بلاو) بين اللهجات الحضرية والبدوية من العربية الوسيطة، حيث اتضحت من المقارنة بأن اللهجات الحضرية نشأت في أول الأمر في معسكرات جيوش الفتح في مدن الإمبراطورية العربية الجديدة حيث كان اختلاط العرب فيها بالأقوام المحلية أكثر قوة، كما يدل عليه بعض النصوص المسيحية العربية من جنوب فلسطين. وهذه النصوص كتبت في الألف الأول بعد الميلاد.ومن جهة أخرى، فإن اللهجات البدوية كانت منتمية مستمرة إلى العربية القديمة في القرون الإسلامية الأولى، كما حافظت على خصائصها الرئيسة من غير تغيير. وكانت اللهجات البدوية قريبة بالعربية النموذجية ، وهو يعني أنها كانت تحتفظ بالإعراب [٦٣] . أنا أوافق مع (بلاو) في الآراء التي قدّمها في قضية الازدواجية اللغوية، لأن تحليله تحليل خال من التحيز، كما عالجها معتمدا على الوثائق الصحيحة.

دراسة الإعراب عند يوهان أوجست فولرز (Johann August Vullers)

وضّح فولرز (١٨٠٣ – ١٨٨٠) الإعراب في كتابه (اللغة العامية واللغة المكتوبة في العربية القديمة) نشره في عام ١٩٠٦م،حيث رأى أن الإعراب لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم خصيصة يستخدمها متكلمو العربية جميعا، وهو لم ينشأ عن الاستعمال اللغوي المشترك، بل ربما كان خصيصة مخصوصة على بعض القبائل. أما العرب الآخرون فإنهم يعدّونه مجرد خصيصة تميّز الخطاب العالي فحسب، وربما كان مقصورا على الشعر الذي يعتمد على الوزن [٦٤].

وقد استدل فولرز على قوله بوجوه

شكّك(فولرز) في وظيفة حركات الإعراب في العربية النموذجية الفصحى، حيث افترض أن هناك بعض اللهجات التي لم تكن فيها إلا حركتان إعرابيتان اثنتان أو حركة واحدة فقط. كما رأى أن كلمة (الإعراب) جاءت من الأصل" أن تُؤعرب" أي تترجم من لغة أخرى إلى لغة الأعراب، حيث مال إلى تقسيم الجغرافيا الاجتماعية للجزيرة العربية قبل

الإسلام إلى قسمين، أوّلهما: بين القبائل التي تستعمل الإعراب والتي لا تستعمله؛ وثانيهما: بين الحجازية والتميمية، كما يقول:إن الإعراب لم يكن موجودا في غرب الجزيرة العربية [الحجاز]، بل كان موجودا في شرق الجزيرة،وهو موطن البدو بصورة عامة. ويدل قول فولرز على أن الإعراب الضروري في عربية الشعر، لا يمكن أن يوجد بصفته سمة للهجة المحكية إلا عند القبائل البدوية. وأن محمدا صلى الله عليه وسلم والحجازيين كانوا يتكلمون لغة تفتقر أساسا إلى سمة الإعراب التي تميّز العربية التي يستخدمونها في الشعر [٦٥].

النتيجة التي انتهى إليها (فولرز) في شأن الإعراب في بحثه

إن القرآن نفسه كان يتلى في أول الأمر بلهجة تخلو من الإعراب وتتصف من جوانب أخرى بأنها عامية، وأنه قد عدّل فيما بعد بما يتفق مع الصيغة والتراكيب والمبادئ التي استخلصت من عربية الشعر. وهذا القول مردود عند كل من جاير ونولدكه وبلاشير ورابين ومايكل زويتلر. والدراسة هذه تتفق مع دراسة بول كاله التي تعتمد على عدد من الأحاديث النبوية وقول للفراء على أن القرآن كان يتلى في الفترة المبكرة من غير إعراب [٦٦].

المآخذ على قول فولرز

الإعراب كان موجودا في الجزيرة العربية عموما،وقول الفراء ينفي وجود الإعراب في الكتابة العربية في بداية العهد الإسلامي، ولكنه لا ينفي وجوده في تخاطب العرب. فإنهم كانوا قادرين على تلاوة القرآن دون علامة الإعراب. وذلك يمكن لهم لسلامة لغتهم وصفاء سليقتهم وذلاقة ألسنتهم.[٦٧] ثم اخترع أبو الأسود الدولي نقط حركات الإعراب وأدخلوها في المصحف لكي لا يقع المسلمون – غير العرب – في الخطأ النحوي.[٦٨] فلذا نقول إن استدلال فولرز بقول الفراء على إثبات رأيه لم يكن صحيحا،كما أن القرآن لم يتل بلغة عامية ولم يحدث في القرآن أيّ تعديل من حيث اللفظ والمعنى.

دراسة الإعراب عند جاير (Geyer)

درس جاير الإعراب في أثناء دراسته لعربية الشعر، التي ذكرها زويتلر في الفصل الثالث من كتابه؛ حيث توصل إلى نتيجة، وهي: إن عربية الشعر كانت اللغة التي يتكلمها البدو بصورة طبيعية لغة أولى لهم،ولم تكن لغتهم الشعرية بعيدة جدا عن لغتهم العامية لأجل بيئتهم الثقافية البدائية المتجانسة. لذلك فإن الشكلين المعرب وغير المعرب كليهما لا بد أنهما يشتركان في وجود الإعراب فيهما [٦٩].

واستدل جاير على رأيه بوجهين: أولا: إن أية لغة إذا حازت مكانة عالية فتتلازم معها المكانة الاجتماعية والثقافية، فهذه الحالة حصلتها لغة عربية الشعر، فحينذاك أنها تلعب دورا وسيطا بين لهجات القبائل واللهجات الفردية للأفراد، فلذا زالت الفروق بين لغة البدو ولغة عربية الشعر. وأما الوجه الثاني فإنه يشير إلى أنه يمكن أن يكون المنتمون إلى طبقات الأشراف في الحجاز قد اتخذوا هذه العربية يعني لغة عربية الشعر نفسها لغة مميّزة لهم ، وذلك لارتباطها الوثيق بتراثهم البدوي الأرستقراطي. ومن هنا يرى جاير أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كتب القرآن مستعملا العربية بنظامها الإعرابي الكامل [٧٠].

وكانت أدلة جاير المذكورة أدلة قوية في دحض آراء فولرز بخصوص لغة القرآن الكريم. هذه أدلة مقنعة جدا في رأي(زويتلر). كما أنها مقبولة أيضا عند نولدكه بصفة عامة. ولكن لم يعدّها أدلة متوافرة على صحة هذا الافتراض حسب نظريته[٧١]. وبالنسبة لي فأنا أوافق على هذا الرأي أيضًا، لكن مما يؤخذ عليه وهو أن جاير نسب تأليف القرآن للنبي محمد صلى الله عليه وسلم،وليس الأمر كذلك، وإنما القرآن وحي يوحى.

دراسة الإعراب عند تيودور نولدكه (Theodore Noldeke)

عالج نولدكه (١٨٣٦ – ١٩٣٠) قضية الإعراب من خلال دراسة *عربية الشعر* والقرآن الكريم. ورأى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم استطاع أن يستخدم في القرآن علامات الإعراب على وجه الخصوص، وإن لم يكن معاصروه يستعملون هذا النظام. ولو نطق

الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنون القرآن بغير إعراب لبقيت آثاره في التاريخ. وكذلك أن الشعر في تلك الفترة كان يمثّل اللغة التي يتكلمها البدو بالطبع حينذاك،ولفترة طويلة بعد ذلك، وإن كان هناك بعض الخصائص تختص ببعض القبائل [٧٢] . وكلامه يدل على أن البدو يتكلمون *بعربية الشعر*. وهي لغة كانت تتميّز، قبل كل شيئ، بنظام الإعراب الكامل.

ورفض نولدكه من قال إن *العربية* أو *عربية الشعر* هي لغة أدبية شعائرية مصطنعة،أو لغة خاصة بالطبقة العليا كان طوّرها الأشراف الحضر الحجازيون وتكلموها[٧٣]. وكذلك أنه لا يرى أن هناك اختلافا كبيرا بين العربية واللهجات البدوية، من ناحية، أو بين العربية واللغة المحكية في مكة والمدينة، من ناحية أخرى [٧٤]. وبرهن نولدكه ببعض الأدلة من الدراسات السامية المقارنة والتاريخ الإسلامي والثقافي واللهجات العربية المعاصرة على وجود علامات الإعراب في اللغة العربية المحكية في القرن السابع الميلادي. وقد ذكر في كتابه "تاريخ القرآن" [٧٥]، مشيرا إلى نص القرآن المكتوب بالخط العثماني، أن هناك حالات كثيرة يرد فيها إعراب النصب بدلا من الرفع،ومنها الآيتان: ١- (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا *وَالصَّابِرِينَ* فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [٧٦]. ٢- لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ *وَالْمُقِيمِينَ* الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا [٧٧].

المآخذ على قول نولدكه

لو درس نولدكه النحو العربي دراسة عميقة لما أخطأ في بيان الإعراب في الآيتين المذكورتين، ففي الآيتين المذكورتين أنه رأى كلمتي(وَالصَّابِرِينَ) و(وَالمقيمين) شاذتين، وفي

الحقيقة ليستا هما شاذة، كما قال صاحب الكشاف: "والصابرين" منصوباً على الاختصاص والمدح،وإظهاراً لفضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال،.و كما أن "وَالمقيمين" نصب على المدح لبيان فضل الصلاة [٧٨].

مسألة الإعراب عند بول كاله (Paul Ernst Kahle)

يرى بول كاله(١٨٧٥–١٩٦٤) أن اللغة التي كان يتكلمها البدو واللغة التي نظم بها الشعر الجاهلي، كانتا متماثلين. أما فيما يخص اللغة التي كان يتكلمها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فليس الأمر بمثل هذا الوضوح. وقد استنتج "كاله" اعتمادًا على نص الفرّاء وعلى عدد من الأقوال المنسوبة إلى الأجيال الأولى من المسلمين بأن هناك دليلا على أن المسلمين الأوائل كانوا يقرأون القرآن من غير إعراب [٧٩]. رأي كاله أن هناك بديلين في كيفية قراءة القرآن عند النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فالأول يفترض بأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يقرأون القرآن بحسب قواعد العربية. وهذه الحال يفترض أن اللغة التي كانت يتكلمها قريش في مكة تماثل العربية بصفة عامة. وأما الثاني فيقول إن اللغة التي كانت يتكلمها قريش في مكة لم تكن تتبع قواعد العربية، وهو ما يعني أن الرسول ص وأصحابه لم يكونوا يستخدمون العربية في قراءة القرآن، وهي اللغة التي ترتبط الآن بالكتاب الكريم [٨٠]. وأنا أظن أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأهل مكة كلهم يتكلمون العربية في مكة متبعين قواعدها.

قضية الإعراب عند أندرو فريمان (Andrew T. Freeman)

درس أندرو فريمان [٨١] قضية الإعراب في بحثه: (The Nature of Old Arabic and its Change into Middle and Modern Arabic) حيث لخّص فيه بعض أكثر النظريات أهمية عن تاريخ العربية وتطورها من الجاهلية إلى الوقت الحاضر .ثم أدلى رأيه عن طبيعة اللغة العربية القديمة، حيث ظن أن العربية القديمة ليست لغة واحدة، وأن وجود الإعراب أو عدمه في العربية المتكلمة القديمة لاينفي وجود عربية الشعر المشتركة. ولكن لم

يكن هناك لهجة مهيمنة في اللغة العربية القديمة. ربما كانت مكة المكرمة في المركز اللغوي المهيمن، لكنها لم تحقق في تلك الفترة المهيمنة الكاملة [٨٢].

وفي آخر الدراسة توصل فريمان إلى نتيجة بأن القضية التي كانت مدار نقاش متكرر بين المستشرقين هي محاولة البحث في أهمية الأثر الذي تركه اختفاء الإعراب. كأنه المعيار الذي يحدد بداية التغير الذي مرت به العربية، وبعبارة أخرى كأنه هو الخط الفاصل بين العربية القديمة والعربية الجديدة. وعولج في هذا الموضوع عدد من القضايا المختلفة، ولكن الأدلة القاطعة لا ترى إلا قليلة، فقام عليه النقاش على أساس الافتراض والتخمين. فلذا لا يرى أن بعض هذه النظريات ينفي بعضها الآخر [٨٣]. وأنا أرى أن لهجة مكة كانت لها سيادة كاملة في اللغة العربية الجاهلية لموقعها الديني.

رأي اللغويين المسلمين

يرى اللغويون المسلمون عموما أن *عربية الشعر* والقرآن الكريم — التي تنتهي الكلمات فيها بحركات الإعراب والتنوين– تتماثل مع لهجة قريش، ومع اللهجات التي كانت تتكلمها أغلب القبائل البدوية كذلك، وبخاصة في نجد وشرق الجزيرة. وقد شاع التفوق اللغوي الطبيعي للبدو والصحة النحوية للكلام الذي يقوله وعدم ميله إلى الوقوع في الخطأ في استعمال الإعراب[٨٤]. وأنا أتفق مع أقوال اللغويين المسلمين تماما بما يرون أنه لا فرق بين *عربية الشعر* والقرآن الكريم، ولا فرق بينهما وبين اللهجات البدوية عموما في العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري.

الخاتمة

وفي الختام نستطيع القول بأن الإعراب كان موجودا في اللغة العربية منذ القدم حتى القرن الرابع الهجري؛ يعني وقت تقعيد النحو العربي على جميع المستويات عند البدو والحضر على السواء. فلذا أظن أن أقوال اللغويين العرب صحيحة ومتوافقة مع تحليل ودراسة الإعراب؛ لأنهم لم يميلوا إلى الانحياز عند التعبير عن آرائهم ولم يعتمدوا على

الافتراض والظن فقط، ولم يغرهم أي شيء على أن يقولوا رأيا لهدف خاص، بل حاولوا بيان دراسة الإعراب بموجب الوثائق المعتمدة والتواريخ المتوفرة حسب الإمكان. ومن جهة أخرى فإننا نرى أكثر أقوال المستشرقين مضطربة، وأصاب البعض في بعض القضايا من هذا الموضوع، في حين أخطأ الآخرون في البعض الآخر؛ وفي غالب الأوقات لجأوا في بيان آرائهم إلى استخدام كلمات"الافتراض" والظن" والرأي"، مقابل الأدلة الموثوقة المعتمدة عند العلماء العرب، وذلك أنهم انتهجوا منهجا يختلف تماما عن منهج العرب في دراسة اللغة، فلم يقبلوا قول العرب عموما، بل رمى بعضهم أقوال اللغويين العرب ومصادر أدلتهم إلى النفاية، متهمين بأنها خرافات وأساطير لا أصل لها في التاريخ.

المصادر والمراجع

١. المستشرقون هم العلماء الغربيون الذين يدرسون المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه ودياناته وثقافاته على وفق مناهجهم الخاصة حيث يختلف مناهجهم عن مناهج علماء العرب .

٢. محمد محي الدين عبد الحميد، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (بيروت:المكتبة العصرية، ج١، ٢٠٠٤م،ص ٣٧٠٣٨)؛ محمد بن صالح العثيمين، شرح الآجرومية (الرياض: مؤسسة الأميرة عنود بنت عبد العزيز بن مساعد آل سعود الخيرية،ط٤، ص ٣٩).

٣. زين الدين عمر الوردي، تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة شرح على ألفية ابن مالك، تح:د. محمد مزعل خلاطي(بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٨، ص ٧٠).

٤. د. محمد حماسة عبد اللطيف ، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث (الكويت: مكتبة أم القرى، ط١، ١٩٨٤م، ص١٢٧)؛ د. أحمد علم الدين الجندي، في الإعراب ومشكلاته–١ (القاهرة: مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٤٢، ١٩٧٨، ص ١٦٣).

٥. في الإعراب ومشكلاته–١ ص ١٦٤؛ العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، ص١٢٧.

٦. صالح بن إبرهيم الحسن، الكتابة العربية من النقوش إلى الكتاب المخطوط (الرياض: دار الفيصل الثقافية، ٢٠٠٣م، ص ١٩٨–٢١١)؛ في الإعراب ومشكلاته–١، ص١٦٥،١٦٢؛ العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث ، ص ١٢٦–١٣٥.

٧. في الإعراب ومشكلاته–١، ص ١٦٥.
٨. أبو القاسم الزجاجي،الإيضاح في علل النحو، تحقيق: د. مازن المبارك (بيروت: دار النفائس،ط٣، ١٩٧٩م، ص ٧٢؛ العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، ص١٤٩.
٩. أبو الفتح عثمان بن جني، تح: د. حسن هنداوي،سر صناعة الإعراب (دمشق: دار القلم، ط٢،ج١، ص١٧).
١٠. أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش، تح: د. إميل بديع يعقوب، شرح المفصل للزمخشري، (بيروت: دار الكتب العلمية،ط١ ،٢٠٠١م، ج١، ص١٥٢.
١١. رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي شرح الرضي على القافية، تح: يوسف حسن عمر، (بنغازي: دار الكتب الوطنية، ط٢، ١٩٩٦م، ج١، ص ٧٠–٧١)
١٢. في الإعراب ومشكلاته–١، ص١٦٧.
١٣. العلامة الإعرابية، ص ١٥٧.
١٤. علمنا من دراسة بعض أبحاث المستشرقين المذكورة أن عربية الشعر أو عربية الشعر المشتركة أو العربية النموذجية أو العربية الفصحى، أو اللغة الأدبية أو العربية كلها مصطلحات بمعنى واحد.
١٥. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية (الرياض: دار الفيصل الثقافية، ط١، ٢٠٠١م، ص ٣٩٧).
١٦. نفس المصدر، ص ٢٦٢–٢٦٨و ٤٨٦–٤٨٧.
١٧. نفس المصدر ، ص ٢٨٢.
١٨. نفس المصدر ، ص ٢٧٥و ٢٨١ ؛ ويبدو أن الشعراء كانوا يعرفون نوعين أساسين من الرويّ: فالأول هو الذي ينتهي بالصوت الصامت وحده في إنشاد كل بيت، والآخر، وهو الأكثر شيوعا، أن تلحق الرويّ حركة طويلة أي (ـــا/ ـــو/ ـــي). ويسمى النوع الأول بـ(القافية المقيدة)، والثاني بـ (القافية المطلقة. (نفس المصدر ، ص ٢٧٤.)
١٩. نفس المصدر ، ص٢٧٥.
٢٠. نفس المصدر ،ص ٢٧٧.
٢١. نفس المصدر ،ص ٣٠٧.
٢٢. نفس المصدر ،ص ٢٩٨–٣٤٠.
٢٣. نفس المصدر ،ص٣٢٣.
٢٤. نفس المصدر ، ص ٣١٩.
٢٥. نفس المصدر ،ص ٣١٩.
٢٦. نفس المصدر ،ص ٣٠٨–٣٠٩.
٢٧. نفس المصدر ،ص ٣٠٩–٩١٠.

٢٨. نفس المصدر ،ص ٣٢٣.

٢٩. نفس المصدر ،ص ٣٣٠.

٣٠. قال أبو عمرو بن العلاء إن الإقواء هو اختلاف الإعراب في القوافي، وذلك أن تكون قافية مرفوعة، وأخرى مخفوضة. ومنه قول النابغة: قالَت بَنو عامِرٍ خالوا بَني أَسَدٍ ... يا بُؤسَ لِلجَهلِ ضَرّارًا لِأَقوام تبدو كواكبه والشمسُ طالعةٌ ... لا النور نور ولا الإظلام إظلامُ" (د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، كتب التاريخ، المكتبة الشاملة، ج١٧، ص٢٠٤).

٣١. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية،ص ٣٦٣– ٣٦٤و ٣٦٨– ٣٩٦.

٣٢. د. جواد علي،المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،كتب التاريخ، المكتبة الشاملة،ج١٧، ص٢٠٥.

٣٣. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية،ص ٤١ –٥٣و ٤٨٤.

٣٤. نفس المصدر ،ص ٤١–٥٣ و ٤٨٤.

٣٥. في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١٩٨٤،٤م،ص٢١٩؛ العربية لسان الله تعالى، نزّل بها آدم عليه السلام، الأستاذ علي رجب المدني(مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة،ع٩٠، القسم الثاني، ٢٠٠٠م، ص٣–١٤).

٣٦. هو الدكتور فيرنر ديم يعمل في جامعة كولن الألمانية، ولا نعلم شيئا عن تاريخ ميلاده.

٣٧. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية،ص ٣٥٩.

٣٨. نفس المصدر ،ص ٣٥٩–٣٦٠.

٣٩. نفس المصدر ،ص ٣٦٠– ٣٦٢.

٤٠. نفس المصدر ،ص ٣٦٢–٣٦٣.

٤١. نفس المصدر ،ص ٣٦٣– ٣٦٤.

٤٢. نفس المصدر ،ص ٣٤٠–٣٤٣.

٤٣. ليس المراد بالمعرب هنا تعريب الكلمات من اللغات الأجنبية، بل يقصد هنا استخدام الإعراب في الكلمات العربية.

٤٤. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية،ص ١٩٢–١٩٣ و ١٩٠و ٤٨٤–٤٨٥.

٤٥. نفس المصدر ،ص ٣٤٢.

٤٦. نفس المصدر ،ص ٣٤٤.

٤٧. نفس المصدر ،ص ١٩٠.س

٤٨. نفس المصدر ،ص ٣٤٧ و ١٩٣.

٤٩. نفس المصدر ،ص ٣٤٩.

٥٠. نفس المصدر ،ص ٦٣–٦٦.

٥١. ترجمه أولا د. عبد الحليم النجار سنة ١٩٥١م. ثم ترجمه د. رمضان عبد التواب، ونشرته مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠م.

٥٢. The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry: Its Character and Implications, Ohio State University Press: Columbus, Ohio,1978.

٥٣. نكتفي هنا بذكر الحوار الخلافي الذي يدور بين سيبويه والكسائي في مسألة (كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور) هل يقال بعد ذلك: (فإذا هو هي) أو (فإذا هو إياها) حتى خرج كل منهما إلى البادية لطلب صحة قوليهما.(يوهان فك، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب،ترجمة: د. رمضان عبد التواب، ونشرته مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠م. ص ٦١).

٥٤. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية،ص ٣٢٦–٣٢٨

٥٥. نفس المصدر ،ص ٣٢٨–٣٢٩.

٥٦. نفس المصدر ،ص ٣٢٩.

٥٧. نفس المصدر ،ص ٣٣٣–٣٣٤.

٥٨. نفس المصدر ،ص ٣٣٤.

٥٩. نفس المصدر ،ص ٢١٢–٢١٣ و ٣٩٤.

٦٠. نفس المصدر ،ص ٣٣٧.

٦١. الازدواجية اللغوية تعني نوعين من اللغة الواحدة، وهما اللغة النموذجية واللغة اللهجية، وهذا يعني أن العربية النموذجية تستعمل في الأغراض الأدبية، في حين تستعمل اللهجات العربية في أغراض الاتصال اليومي. (نفس المصدر ،ص ١٨٦)

٦٢. نفس المصدر ،ص ١٨٧.

٦٣. نفس المصدر ،ص ٢١١– ٢١٤.

٦٤. نفس المصدر ،ص ٢٩٩.

٦٥. نفس المصدر ،ص ٢٩٩–٣٠٠.

٦٦. نفس المصدر ،ص ٣٠٠– ٣٠١ ،٣٩٣.

٦٧. محمد عبد العظيم الزرقاني،مناهل العرفان،تحقيق: فوار أحمد زمرلي(بيروت: دار الكتاب العربي،ط١، ١٩٩٥م، ج١، ص٣٣٢).

٦٨. صالح بن إبرأهيم الحسن، الكتابة العربية من النقوش إلى الكتاب المخطوط،ص ١٩٨–٢١١.

٦٩. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية،ص ٣٠١.

٧٠. نفس المصدر ،ص ٣٠١–٣٠٣.

٧١. نفس المصدر ،ص ٣٠٣.

٧٢. نفس المصدر ،ص ٣٢١.

٧٣. نفس المصدر ،ص ٣١٩.

٧٤. نفس المصدر ،ص ٣١٩.

٧٥. تيودور نولدكه،تاريخ القرآن، ترجمة:د. جورج تامر وآخرون (بيروت:مؤسسة كونراد- أودناور، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٤٤٣-٤٤٤)

٧٦. القرآن الكريم،سورة البقرة،رقم الآية:١٧٧.

٧٧. القرآن الكريم،سورة النساء، رقم الآية: ١٦٢.

٧٨. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن الزمحشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،(بيروت: دار المعرفة،ط٣، ٢٠٠٩م، ص ٤٩٠، ١٥٩).

٧٩. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية،ص ٣٢٣ .

٨٠. نفس المصدر ،ص ٣٢٢-٣٢٣.

٨١. بعد حصول الماجستير سنة ١٩٩٦م من جامعة ميشيغان عمل فريمان مدرسا للعربية الحديثة في نفس الجامعة. ثم حصل الدكتوراه من أقسام اللغويات ودراسات الشرق الأدنى من نفس الجامعة سنة ٢٠٠٢م. ولم نطلع شيئا على تاريخ ميلاده.

٨٢. د. حمزة بن قبلان المزيني، دراسات في تاريخ اللغة العربية،ص ٤٩٦-٥٠٥

٨٣. نفس المصدر ،ص ٥٠٦-٥٠٧ و ٥١٤

٨٤. نفس المصدر ،ص ٢٨٨-٢٨٩و ٢٩٨.